المبحث الثالث

الشخصية الإقليمية للعالم العربي

في العام التالي لنشر «حمدان» مقالته الرائدة «هذه الجغرافية» أصدر في عام ١٩٥٨ كتاباً يتألف من ثلاث دراسات، أولاها عن: الشخصية الإقليمية للوطن العربي، وثانيتها عن الوحدة الإقليمية للعالم العربي [١] بحثاً عن «فلسفة مكان» هذا الإقليم التى يمكن استقطابها في معادلة إقليمية تلخص «روح المكان» فيه، وذلك للتعرف علي شخصيته الإقليمية التى تميزه عن غيره من أقاليم العالم الأخرى . وقد احتاج «حمدان» لاستقراء «كل ثنايا الحقيقة الطبيعية وطوايا الحياة البشرية» في المنطقة، لا في الحاضر فحسب، وإنما كذلك في الماضي، لأن الزمن ـ في اعتقاده ـ هو البعد الرابع للإقليم، مثلما أن التاريخ هو البعد الرابع للجغرافيا، ولأن الجغرافيا التطبيقية applied - الهدف النهائي للجغرافيا المعاصرة لا يمكن إلا أن تبدأ من الجغرافيا النظرية الإقليمية [٢].

وقد تساءل حمدان: هل للعالم العربي شخصية إقليمية متفردة يتميز بها عن غيره من مناطق العالم؟ وهل له خصائص تفارق بينه وبين غيره ـ خصائص تتكرر وتتواتر في مختلف نواحي وجوده؟ وقبل أن يجيب عن هذين التساؤلين أقرّ «حمدان» بأنه ليس من الضروري أن يكون لكل منطقة شخصية إقليمية متفردة، وليس من الضروري أن تكون الشخصية الإقليمية للمنطقة كاملة التفرّد والتمايز عن غيرها.

ومع ذلك فإنه لا مفر من اعتبار العالم العربي واحداً من بين المناطق التى تمتاز بشخصية إقليمية متفردة بدرجة ليست أقل من مذهلة، فهناك نغمة أساسية وإيقاع مشترك يرين علي جميع نواحي الوجود الطبيعي ويتكرر بإلحاح في كل جوانب الحياة البشرية في الماضي والحاضر، هذا القاسم المشترك الأعظم هو أن العالم العربي إقليم اتصال وجبهة التحام ومنطقة التقاء بين عدة وحدات إقليمية علي سطح الأرض [٣].

(١) جمال حمدان ـ دراسات في العالم العربي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .

(٢) المرجع السابق ـ ص ٣.

(٣) السابق ـ ص ٧.

ولا تقتصر هذه الصفة الأوّلية علي محتويات الإقليم الداخلية من طبيعية وبشرية، بل وتنصرف الي الموقع الخارجي كذلك، فالعالم العربي إقليم اتصال مورفولوجياً ووظيفياً، موقعاً ومناخاً ونباتا، بنية وتركيبا، حيوياً وجنسياً، في التاريخ والسياسة، في الحضارة والثقافة، ولا شك أن مجموعتين رئيستين من الضوابط وهما: الموقع الخارجي والخصائص الداخلية هي المسؤولة عن هذا [1].

محددات الشخصية الإقليمية للعالم العربي

حدد «حمدان» خاصية العالم العربي كإقليم اتصال في عناصر النواحي الطبيعية والبشرية والتاريخية والسياسية كما يلي:

- النواحي الطبيعية، وتتمثل في الموقع الفلكي للعالم العربي، وفي مناخه ونباته، وفي جيولوجيته.

- النواحي البشرية، وتتمثل في سكان العالم العربي ومعموره، وفي اقتصاده واجتماعه، وفي نواحيه الجنسية والدينية.

- النواحي التاريخية والحضارية.

- النواحي السياسية.

أولا: النواحي الطبيعية:

١ ـ من حيث الموقع الفلكي أو المطلق أي موقع العالم العربي بين توزيعات الأرض الكبرى الذي يشغله العالم العربي في كتلة العالم القديم هو موقع فريد، وهي الكتلة التي تأخذ شكل متوازي أضلاع ضخم، يترامي العالم العربي عبر وسطه الهندسي تقريباً، ويمثل قلبه أو صرته، لأنه حجر الزاوية أو العقدة القارية الضخمة التى تلحم فصوصه

(١) السابق ـ المكان نفسه.

الكبرى الثلاثة: آسيا وأفريقيا وأوربا، وهو الجسر الأرضي الأول والأكبر داخل هذا العالم.

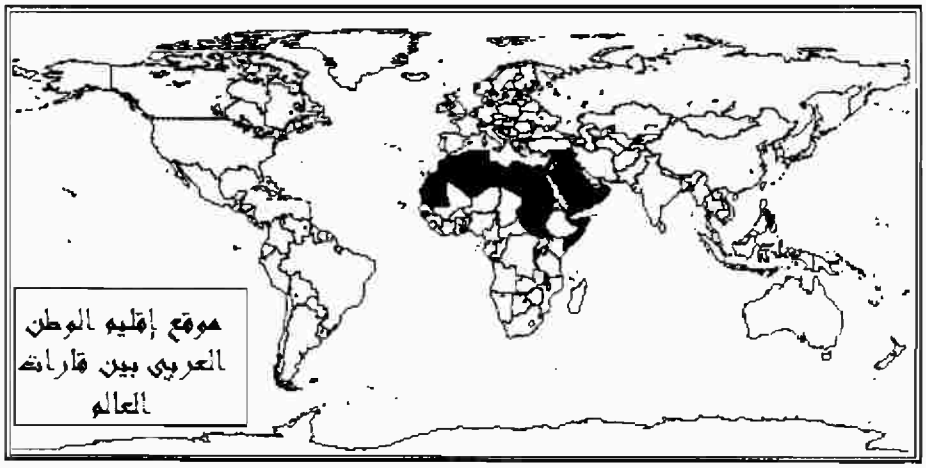

شكل رقم (١)

وليس إقليم العالم العربي بموقعه الفلكي إقليم اتصال بريّ فقط، ولكنه أيضا إقليم اتصال بري ـ بحري، حيث تتخلله ثلاثة مسطحات مائية كبرى: البحرين المتوسط والأحمر والخليج العربي، فالإقليم بوضوح ـ كما خلص حمدان ـ مجمع الماء ومفرق اليابس [1].

٢ ـ ومن حيث المناخ والنبات يمثل العالم العربي إقليم اتصال بكل معنى الكلمة؛ لأنه إقليم انتقال من المداريات إلي المعتدلات، فهو بحكم عروضه الوسطى يقع في جبهة التحام الكتل الهوائية المداريّة والقطبيّة، والقاريّة والبحريّة، أو في جبهة الافتراق بين التجاريّات والعكسيّات، حيث تتناوب هذه القوى والمؤثرات السيطرة علي الإقليم من فصل إلى فصل، ومن ثم يضم هذا الإقليم نوعين مناخيين أساسيين: النوع

(١) السابق ـ ص ٨.

الصحراويّ، الذي يشغل معظم رقعته، والنوع المتوسطيّ الذي يتوّج النوع الصحراويّ بإطار هامشي في ناحية الشمال الغربي، وإن كان النوع الصحراويّ يتعدّل محلياً إما بارتفاع إلي مناخ جبليّ في الشمال وموسميّ في الجنوب من الجزيرة العربية، وإمّا بالمياه الدخيلة أو الواحات المتدخّلة النابعة من مناخات خارج مناخ الصحراء ولكن الواقعة داخله كالرافدين والنيل [1].

ويترتب علي الصفة الانتقالية للمناخ في إقليم العالم العربي أن المزروعات فيه تشكل مركبا من المحاصيل الانتقالية أساساً، أي تلك التى تجمع بين خصائص المحاصيل المدارية والمحاصيل الباردة، ومن ثم يمثل العالم العربي إقليم اتصال بين عوالم زراعية متفاوتة يأخذ من كل منها بمركبٍ زراعيٍ معين.

٣ ـ أما من حيث الناحية الجيولوجية فمن المؤكد أن العالم العربي يمثل إقليم اتصال، فجيولوجية الإقليم أساساً هي التقاء القديم بالحديث، النواة الأركيّة بالالتواء الألبيّ، أو «جندوانا» ب «التيثس»، بكل ما يعنيه كل منهما من مركبّ معدنيّ خاص، ومن ثم فالجزء الأكبر من رقعة العالم العربي رصيف جندوانيّ قديم، تواضع لفرط قدمه الي هضبة أو سهل تحاتي، عمل كنواةٍ نمت حولها من الشمال حلقة جبلية حديثة عالية، ويتفق الرصيف مع الصحراء، والالتواء مع مناخ البحر المتوسط، بحيث ضبطت ملامح التضاريس الكبرى توزيع تفاصيل النطاقات المناخية وشكلتها الي حد معين [2].

ثانيا: النواحي البشرية:

١ ـ من حيث السكان والمعمور يتفرد إقليم العالم العربي بأنه يمثل منطقة اتصال بين محورين متناقضين متقاطعين هما القاطع الصحراوي المتصل الذي يكاد يمثل اللامعمور ـ الصحراء الكبرى وصحراء العرب ـ كجزء من نطاق صحارى منتصف

(١) السابق ـ ص ٩.

(٢) السابق ـ ص ١٤.

العالم، وقاطع «خط الاستواء السكاني في العالم القديم الذي يمثل عامود المعمور الفقري في هذا العالم [١].

٢ ـ ومن حيث المجال الاقتصادي والاجتماعي يتفرد إقليم العالم العربي مرة أخرى بأنه يمثل إقليم اتصال، فكنتيجة للنمط الاكيومينى تتلاقى الزراعة والرعي على قدم المساواة، الزراعة المطرية المتوسطية من الشمال والزراعة المدارية الفيضية من الجنوب، والرعي من الشرق ومن الغرب ولهذا ـ ومن الناحية الاجتماعية ـ يتداخل الفلاح والراعي بالطريقة نفسها، وليس في العالم القديم منطقة تتخلل الزراعة الرعي فيها بالنمط والدرجة نفسها التي توجد في العالم العربي، مما يؤكد الشخصية المتفردة للعالم العربي كإقليم اتصال في المجال الاقتصادي والاجتماعي [٢].

٣ ـ أما من حيث السلالة والدين فيتفرد إقليم العالم العربي مرة بأنه يمثل منطقة اتصال بين كتل السلالات ومصباً للحركات الجنسية لوقوعه بين مواطن السلالات الثلاث: المغولية والقوقازية والزنجية، وكان لموقعه الأوسط في صرة العالم القديم، ولنمط تضاريسه «المَمَري» أثر كبير في جعله «ملتقى البشرية» أكثر منه معبر أو ممر جنسيّ، وفضلا عن كونه مصبا للحركات الجنسية فإنه ـ وبحق ـ منبع للحركات الدينية ومركز لتصديرها، كمنطقة وسطاً ظهرت فيها الأديان السماوية الثلاثة ثم انتشرت في كل أرجاء العالم:القديم ثم الجديد [٣].

ثالثاً: النواحي التاريخية والحضارية:

١ ـ يعتبر الدور التجاري أبرز ملامح تاريخ إقليم العالم العربي، وذلك انعكاساً لموقعه المطلق كعقدة قارية برمائية وموقعه النسبي كحلقة وسطى بين قطبي المعمور:

(١) السابق ـ المكان نفسه.

(٢) السابق ـ ص ١٦.

(٣) السابق ـ ص ١٧.

المعتدلات والموسميات، مما أعطاه دور الوسيط التجاري الوحيد أو الرئيس في العالم القديم، بين آسيا الموسمية وأفريقيا المدارية وأوربا المعتدلة، ولقد كان موقع العالم العربي أكثر أهمية من موضعه، وهذا الفارق بين قيمة الموقع والموضع يرجع في أساسه الي شخصية الإقليم الكبرى كمنطقة اتصال [١].

٢ ـ أما الشخصية الحضارية لإقليم العالم العربي فتؤكد تفرده كإقليم حضاري، فقد كانت البيئة الفيضية مشتلاً للزراعة وحضانة للحضارة، حيث تم تفريخ التاريخ، وكانت البيئة الصحراوية الدرقة الكثيفة الواقية، وبفضل الموقع الأوسط أمكن لهذا المركب الحضاري أن ينتشر بعيدا [٢].

رابعاً: النواحي السياسية

يبدو العالم العربي في عالم السياسة مخلوق فذ الشخصية فريد من نوعه، ومن ميزات شخصيته السياسية أن فيها تتلاقي معظم خيوط شخصيته الإقليمية في النواحي الطبيعية والبشرية، ومن ثم فالشخصية السياسية للعالم العربي هي مفتاح إجمالي لشخصيته الإقليمية الكاملة، حيث تتضح شخصية هذا العالم كإقليم اتصال [٣].

وقد توسع المغزى الكامل لهذه الشخصية عبر مراحل طويلة ارتبطت بتوسع العلاقات المكانية للإقليم، والتى توسعت بدورها بتوسع المعمور منذ فجر التاريخ، وهذه المراحل هي:

المرحلة النهرية: منذ فجر التاريخ وطوال التاريخ القديم، حين كانت رقعة العالم المعروف لا تزيد علي العالم العربي تقريباً، وكان كل تاريخ الشرق الأوسط يختزل نفسه في معادلة واضحة هي الصراع بين الرمل والطين، كما قال بذلك «جيمس هنري

(١) السابق ـ المكان نفسه.

(٢) السابق ـ ص ٢١.

(٣) السابق ـ ص ٢٢.

برستيد»[1].

المرحلة البحرية: وبدأت قبل الميلاد بقليل، حين كانت رقعة العالم المعروف تتسع لتشمل البحر المتوسط وسواحله، وحيث كانت المعادلة التاريخية السائدة هي الصراع بين قوى البر «الفرس» وقوى البحر «اليونان»، وهما قوتان كان لابد لهما من اجتياح العالم العربي والاستيلاء عليه، ثم بعد ذلك بين «الباربيين» ورثة فارس وروما وريثة أثينا، إلي أن ظهر الإسلام ووحد العرب عالمهم وأضافوا إليه قبل أن يحولوا منطقتهم من منطقة التحام إلي قوة أخضعت كلا من قوتي البر والبحر[2].

المرحلة المحيطية: وبدأت حين خرجت حضارة العالم القديم من حدود البحار الخارجية إلي خضم المحيط مع كشف العالم الجديد وطريق رأس الرجاء الصالح، وحدوث عملية «الأسر النقلي» الذي حوّل البحر المتوسط الي «زقاق مغلق» والممر العربي إلي «قبو مصمت» إلي أن شقت قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فأعادت للعالم العربي أهميته كموقع.

المرحلة الكوكبية: وهي الفترة التى بدأت فيها استراتيجية العالم القديم في التأثر بوجود العالم الجديد مع خروج الولايات المتحدة من عزلتها وظهورها علي مسرح العالم القديم[3].

الوحدة الإقليمية للعالم العربي

إن التطبيق العملي للوحدة في الشخصية الإقليمية هو الوحدة الإقليمية مورفولوجياً «تركيبياً» ووظيفياً، والوحدة المورفولوجية في أقصر تعريف هي التجانس الداخلي والتنافر الخارجي، لكن ذلك لا يعني أن تفرد الشخصية الإقليمية لمنطقة ما يعطيها

(١)السابق ـ ص ٢٣.

(٢)السابق ـ ص ٢٤.

(٣)السابق ـ ص ٢٨.

وحدتها المورفولوجية، لأن الشخصية الإقليمية غالباً لا تأتي من التركيب الداخلي وحده، وإنما من الموقع الخارجي كذلك، وبالنسبة للعالم العربي إذا كان تركيبه لا يحقق تماماً شرط التجانس الداخلي، فإن موقعه يحقق الي حد بعيد شرط التنافر الخارجي [١].

الوحدة التركيبية

وإقليم العالم العربي قوي التحديد بثلاثة أنواع قوية من الحدود الطبيعية: البحر شمالاً وجنوباً، الصحراء جنوباً، والجبال شرقا وشمالاً، وكان هذا التحديد الطبيعي القوي من أهم العوامل التى حفظت علي الإقليم شخصيته عمن سواه، وبوجه خاص الجبال التى فصلت الحضارات والأجناس واللغات الإيرانية والتركية عن الإقليم، بحيث يمكن اعتبار هذه الجبال «سور العرب الطبيعي العظيم» [٢] فبفضل الموقع والحدود امتاز العالم العربي بدرجة كبيرة من التنافر الخارجي.

ومن حيث التجانس الداخليّ كان الإسلام أهم عامل علي الإطلاق في تاريخ المنطقة في تحقيق تجانسها البشري الأساسي، فالأساس الجنسي واحد متجانس، والتفرقة اللغوية بين حاميين وساميين لا مغزي جنسي لها، بل وتكفلت «الموجة العربية» بمحو هذه التفرقة وتحقيق توحيدها اللغوي، حتي أصبح التجانس القاعديّ ـ جنسياً ولغوياً ودينياً ـ هو قانون التركيب الداخلي في العالم العربي، رغم وجود بعض الأقليات الجنسية واللغوية والدينية، ولكنها أقليات ذات نسب عددية محدودة، ويقتصر وجودها توزيعياً علي هوامش العالم العربي إلى حد بعيد [٣].

أما من حيث النواحي الطبيعية فيمكن القول بأن هناك نوعاً من «التجانس المرّكب» الذي يتمثل في ذلك التنافر الذي يأخذ شكل «النظائر الجغرافية» المتتالية، فهناك ثلاثة

(١) السابق ـ ص ٣٨.

(٢) السابق ـ المكان نفسه.

(٣) السابق ـ ص ٣٩.

أزواج من تلك النظائر يتمثل كل زوج منها في وحدتين كل وحدة منهما متشابهة تركيبياً ووظيفياً، الزوج الأول هو البيئة الفيضية، حيث يناظر بيئة الرافدين وادي النيل في مصر، والزوج الثاني هو البيئة البحرية حيث يناظر ساحل المتوسط سواحل عمان واليمن، أما الزوج الثالث فهو البيئة الجبلية، حيث تناظر جبال كردستان نظيرتها في اليمن، والبيئة الصحراوية حيث تناظر صحراء العرب الصحراء الكبري [1].

الوحدة الوظيفية

إن فكرة الإقليم الجغرافي هي أساساً تعميم اختزالي تجاوزي لا ينفي وجود فوارق محلية كثيرة، والوحدة المورفولوجية المطلقة ـ النظرية ـ شلل وموت سواء في البيولوجيا الحية أو الأقاليم الجامدة، كما أنها لا تأتي من الوحدة المورفولوجية وإنما من التباين التركيبي، والمقصود بالوحدة الوظيفية هو وجود علاقات ترابط وتفاعلات متبادلة داخل حدود وبين أجزاء المنطقة التى توجد بينها من الناحية العملية فتتكامل وظائفها [2].

والوحدة الوظيفية العربية ضرورة إقليمية بسبب طبيعة الشخصية الإقليمية للعالم العربي التى تتمثل في أن كل الخصائص والعناصر التى تجعله إقليم اتصال هي عناصر ضعف شديد له إذا لم تكن هناك هذه الوحدة الوظيفية، بينما هي في الوقت نفسه عناصر قوة كبيرة إذا تحققت هذه الوحدة الكاملة والوحدة الوظيفية العربية ممكنة إقليمياً لأنها ضرورة جغرافية وحقيقة تاريخية، فالجغرافيا أم الوحدة مثلما أن التاريخ أبوها [3].

(١) السابق ـ ص ٤١.

(٢) السابق ـ ص ٥٨.

(٣) السابق ـ المكان نفسه.